فائدة بديعة

في قوله تعالى: {صراط الذين أنعمت عليهم} (سورة الفاتحة: الآيتان ٦ ــ٧)

المسألة الأولى : ما فائدة البدل في الدعاء والداعي مخاطب لمن لا يحتاج إلى البيان والبدل القصد به بيان الاسم الأول.

الجواب : وهي فائدة البدل من الدعاء أن الآية وردت في معرض التعليم للعباد والدعاء وحق الداعي أن يستشعر عند دعائها ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به ، فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء وجب أن يكون الطلب ممزوجاً بالثناء ، فمن ثم جاء لفظ الطلب للهداية مشوباً بالخير تصريحاً من الداعي بمعتقده وتوسلاً منه بذلك الاعتقاد الصحيح إلى ربه،

فكأنه الداعي مع طلب الهداية أخبر مع عن اعتقاده أن صراط الحق هو الصراط المستقيم، وأنه صراط الذين اختصهم بنعمته وأحبهم بكرامته. وكأنه توسل إليه بإيمانه واعتقاده على هذا الصراط و بإعتقاده على المنعم عليه.

ففي ضمن هذا الدعاء المهم الإخبار بفائدتين جليلتين:

إحداهما: فائدة الخبر.

والثانية: فائدة لازم الخبر.

فأما فائدة الخبر فهي الإخبار عن الصراط بالاستقامة وأنه الصراط المستقيم الذي نصبه لأهل نعمته وكرامته

وأما فائدة لازم الخبر فإقرار الداعي بذلك وتصديقه وتوسله بهذا الإقرار إلى ربه، ففي هذه الأسلوب أربع فوائد:

١. الدعاء بالهداية إلي الصراط

٢. الإخبار عنه بأن طريقه و صراطه هو متصف بالاستقامة وأنه الصراط المستقيم الذي نصبه لأهل نعمته وكرامته

٣. الإقرار والتصديق لشأنه

٤. والتوسل إلى المدعو إليه بهذا التصديق

٥. أن الداعي إنما أمر بهذا الدعاء لحاجته إليه ، وأن سعادته وفلاحه لا تتم إلا بهدايته إلى الصراط المستقيم ، فهو مأمور بتدبر ما يطلب وتصور معناه ، فذكر له من أوصافه ما إذا تصوره وقام بقلبه كان أشد طلباً له وأعظم رغبة فيه وأحرص على دوام الطلب والسؤال له، فتأمل هذه النكت البديعة.

المسألة الثانية : ما الحكمة في إضافة " صراط " إلى قوله تعالى: {الذين أنعمت عليهم} بهذا اللفظ ولم يذكرهم بخصوصهم فيقول صراط النبيين والصديقين فلم عدل إلى لفظ المبهم دون المفسر؟

الجواب : وفي إضافة " صراط " إلى الموصول المبهم دون أن يقول : صراط النبيين والمرسلين، فيه ثلاث فوائد :

إحداها: إحضار العلم وإشعار الذهن عند سماع هذا، فإن استحقاق كونهم من المنعم عليهم هو بسبب هدايتهم إلى هذا الصراط ، فبه صاروا من أهل النعمة ، وهذا كما أنه قال اهديني لصراط المستقيم الذي بسببه أنعمت على أحبتك

الفائدة الثانية: الغبطة في الدعاء كأنه اغتبط النعمة التي انعم الله عليهم و طلب من الله أن يجعله معهم

الفائدة الثالثة: أن الآية عامة في جميع طبقات المنعم عليهم ، ولو أتى باسم خاص صراط من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، لم يكن فيه عموم فكأنه قال اجعلني مثل النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين بخصوص ذاتهم بغض النظر عن أوصافهم ، أما لو قال اجعلني مثل المنعم عليهم فذكر اتصافهم بالنعمة كأنه قال اجعلني مثلهم في نعمتك إياهم و هذا هو المطلوب مهما كانت النعمة سواء في الدنيا أو آخرة

المسألة الثالثة : ما الحكمة في التعبير عنهم بلفظ الذي مع صلتها دون أن يقال المنعم عليهم وهو أخصر. كما قال: {المغضوب عليهم} وما الفرق؟

الجواب : وهو أنه قال: {الذين أنعمت عليهم} ولم يقل المنعم عليهم ، كما قال: {المغضوب عليهم} ففيه فوائد عديدة:

أحدها: أن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن، وهي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله سبحانه وتعالى، فيذكر الفعل معروفا لا مجهولا ، وأما إذا جيء بأفعال الجزاء والعقوبة ذكرت بفعل مجهول وذلك أدباً في الخطاب، ففي هذه الآية فإنه لنعمة فأضافها إلى الله تعالى ولم يحذف فاعلها فقال {الذين أنعمت عليهم}، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل و بنى الفعل للمفعول ، فقال: {المغضوب عليهم}

ونظيره قول إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه: {الذي خلقني فهو يهدين، والذي هو يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين} (سورة الشعراء: الآيات ٧٨ـــ٨٠) فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله تعالى، ولما

جاء إلى ذكر المرض، قال: {وإذا مرضت} ولم يقل أمرضني، وقال: {فهو يشفين}.

ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: {وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً} (سورة الجن: الآية ١٠) فنسبوا إرادة الرشد إلى الرب، وحذفوا فاعل في إرادة الشر، وبنوا الفعل للمفعول،

ومنه قول الخضر عليه الصلاة والسلام في السفينة: {فأردت أن أعيبها} (سورة الكهف: ٧٩)، فأضاف العيب إلى نفسه ، وقال في الغلامين: {فأراد ربك أن يبلغا أشدهما} (سورة الكهف: الآية ٨٢)

الفائدة الثانية: أن الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم بها ، وأصل الشكر ذكر النعم والعمل بطاعته ، وكان من شكره إبراز الضمير المتضمن لذكره تعالى الذي هو أساس الشكر، وكان في قوله: {أنعمت عليهم} من ذكره وإضافته النعمة إليه ما ليس في ذكر المنعم عليهم لو قاله ، فضمن هذا اللفظ الأصلين، وهما الشكر والذكر المذكوران في قوله: {فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون} (سورة البقرة: الآية ١٥٢) ، فكأنه وضح وقال أنت الله الذي أنعمت عليهم فأذكرك و أشكرك .

الفائدة الثالثة: أن النعمة بالهداية إلى الصراط لله وحده، وأنه هو المنعم بالهداية دون أن يُشركه أحد في نعمته ، فاقتضى اختصاصه بها أن يضاف إليه بوصف الإفراد، فيقال: {أنعمت عليهم} أي أنت وحدك المنعم المحسن المتفضل بهذه النعمة،

وأما الغضب فإن الله سبحانه غضب على من لم يكن من أهل الهداية إلى هذا الصراط، وأمر عباده المؤمنين بمعاداتهم، وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم عليهم، فموافقته تعالى تقتضي أن يغضب على من غضب عليه، ويرضى عمن رضي عنه، فيغضب لغضبه ويرضى لرضاه، وهذا حقيقة العبودية، واليهود قد غضب الله عليهم، فحقيق بالمؤمنين الغضب عليهم، فحذف فاعل الغضب وقال {المغضوب عليهم} لما كان للمؤمنين نصيب من غضبهم على من غضب الله عليه، بخلاف الإنعام فإنه لله وحده، فتأمل هذه النكتة البديعة.

الفائدة الرابعة: أن المغضوب عليهم في مقام الإعراض عنهم وترك الالتفات إليهم، والإشارة إلى نفس الصفة التي لهم والاقتصار عليها، وأما أهل النعمة فهم في مقام الإشارة إليهم وتعيينهم والإشارة بذكرهم ، فالذين أنعمت عليهم إشارة إلى تعريفهم بأعيانهم وقصد ذواتهم بخلاف المغضوب عليهم، فالمقصود التحذير من صفتهم والإعراض عنهم وعدم الالتفات إليهم .

المسألة الرابعة : أن قوله تعالى: {الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم} يقتضي أن نعمته مختصة بالأولين دون المغضوب عليهم ولا الضالين، وهذا حجة لمن ذهب إلى أنه لا نعمة له على كافر فهل هذا استدلال صحيح أم لا؟

الجواب : وهي أنه خص أهل السعادة بالهداية دون غيرهم، فهذه مسألة اختلف الناس فيها وطال الحجاج من الطرفين، وهي أنه هل لله على الكافر نعمة أم لا؟ فمن ناف احتج بهذه الأدلة :

بقوله تعالى : {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً} (سورة النساء: الآية ٦٩) فخص هؤلاء بالإنعام فدل على أن غيرهم غير منعم عليه، ولقوله لعباده المؤمنين

و بقوله تعالى : {ولأتم نعمتي عليكم} (سورة البقرة: الآية ١٥٠) وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة، فأي نعمة على من خلق للعذاب الأبدي.

ومن أثبت احتج بهده الأدلة :

بقوله تعالى : {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها} (سورة النحل: الآية ١٨)،

و بقوله تعالى : {يبني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم} (سورة البقرة: الآية ٤٧)، وهذا خطاب لهم في حال كفرهم،

وبقوله في سورة النحل التي عدد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله: {كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون، فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين، يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون} (سورة النحل: الآيات ٨١ـــ٨٣) وهذا نص صريح لا يحتمل صرفاً.

وفصل الخطاب في المسألة: أن النعمة الخاصة مختصة بأهل الإيمان لا يشركهم فيها سواهم، والنعمة العامة عام للخليقة كلهم برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فالنعمة الخاصة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم، فهذه غير مشتركة، والنعمة العامة مشترك،

وبهذا تتفق الأدلة ويزول النزاع ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب، والله الموفق للصواب.

المسألة الخامسة : إذا ثبت أن في البدل يكون المبدل منه غير مقصود فيه ، فهل يمكن أن نقول أن صراط المستقيم غير مقصود هنا ، و أن المقصود هو صراط الذين أنعمت عليهم بدلاً منه ، فما فائدة البدل هنا؟

فالجواب: أن قول النحاة في البدل في أنه غير مقصود هذا كلام لا يصح على إطلاقه ، بل للمبدل منه فوائد يفهمه كل من دخل في بلاغة الكلام فنقول : أنه لابد بين البدل و المبدل منه علاقة وهذه العلاقة هي الفائدة من المبدل منه فمثلا لو قلت : جاء زيد أخوك فالمقصود منه جاء أخوك ولكن هناك فائدة التي يظهر من البدل هي أن أخوك اسمه زيد ، فكأنك قلت : جاء أخوك الذي اسمه زيد ، فاختصر الكلام و قال جاء زيد أخوك .

فعلماء النحو و الصرف عندما أرادوا الفرق بين البدل و المبدل منه و بين الصفة و الموصوف فما وجدوا شيئا إلا أن يقولوا أن الموصوف يكون متصفا بصفته و أن المبدل منه يكون غير مقصود و هذا ليفرقوا بين الموصوف و المبدل منه لأن البدل لا نستطيع أن نقول له أنه صفة للمبدل منه ، وليس قصدهم أن المبدل منه ليس له فائدة أصلا في الكلام ، إلا إذا كان البدل هو بدل الغلط فممكن نقول فيه أنه ليس فائدة المبدل منه أصلا و لكن بدل الغلط لا يكون عمدا بل الغالب فيه أن يكون سهوا ، فكأن القائل لم يقصد أصلا .

ومثال ذالك في بدل البعض و بدل الاشتمال فمثلا لو قلت : ضربت زيدا رأسه فلاشك معناه أنك ضربت الرأس ولكن ليس المقصود منه أي رأس بل رأس زيد فلهذا عيد عله الضمير فكأنك قلت ضربت رأس زيد

ومثله إذا قلت : سلبت زيدا ثوبه فكأنك قلت سلبت ثوب زيد .

فإن اعترضت و قلت إذا كان الأمر كما قلت فلماذا اعتدل من قولك – سلبت ثوب زيد إلى قولك سلبت زيدا ثوبه ،

فنقول : أنه هناك قد يكون فوائد أخرى غير الذي ذكرناه فمثلا لما قال: {اهدنا الصراط المستقيم} فكأن الذهن طلب معرفة هل هذا الصراط يكون مختص بنا أم سلكه غيرنا ممن هداه الله ، فقال: {صراط الذين أنعمت عليهم} ، وهذا كما إذا دللت رجلاً على طريق لايعرفها وأردت توكيد الدلالة وتحريضه على لزومها وأن لايفارقها، فأنت تقول: هذه الطريق الموصلة إلى مقصودك، ثم تزيد ذلك عنده توكيداً وتقوية، فتقول: وهي الطريق التي سلكها الناس والمسافرون وأهل النجاة.

أفلا ترى كيف أفاد وصفك لها بأنها طريق السالكين الناجين قدراً زائداً على وصفك لها بأنها طريق موصلة وقريبة سهلة مستقيمة، فإن النفوس مجبولة على التأسي والمتابعة، فإذا ذكر لها من تتأسى به في سلوكها أنست واقتحمتها، فتأمله.

و مثل هذه الفوائد في كل مكان يختلف عن غيره